﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: 144]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيان وسطيّة الأمّة، جاء الأمرُ بالتّوجُّه إلى المسجدِ الحرامِ في الصّلاة

لمّا ذكر في الآيتين السّابقتين مُمَهِّدات تحويل القبلة، سواء ببيان كيفيّة استقبال المُشركين وأهل الكتاب لهذا الأمر، أو بيان جَعلِ أمّةِ المسلمين أمّةً وسطًا، ليكونوا شُهداءَ على النّاس، وبيان علّةِ تحويل القبلةِ، أمرَ سُبحانه نبيَّهُ وجميعَ المسلمين في هذه الآيةِ بالتّوجّه إلى المسجدِ الحرام في صَلَواتِهم.

وذكرَ الإمامُ البقاعيُّ وَجْهًا آخر لمناسبةِ الآية لِما قبلها؛ مُفادُهُ أنَّ تحويلَ القبلة إلى الكعبةِ المُشَرَّفة من الرّأفةِ برسولِ الله ﷺ الذي كان مُتَشَوِّفًا إلى استقبالها، قال رحمهُ الله تعالى: "ولمّا أشعرَ الكلامُ السّابقُ أهلَ البلاغة بإحداث أمرٍ في القِبلة فتَوَقّعوا الخبرَ عن ذلك، وبيّنَ رأفتَهُ ورَحمتَهُ بالنّاس عُمومًا، بيّنَ ذلك برسوله خُصوصًا بأنَّ تحويلَهُ إلى الكعبة رأفةٌ منه به، ورحمةٌ له مع ما تقدَّمَ من فوائده"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَقَلُّبَ﴾: الأَصْلُ في التّقليب: رَدُّ شَيْءٍ وتحويلُهُ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ[2]، والتّقلُّبُ مُطاوِعُ التّقليب، وتقلّبُ الوجه – في سياق الآية – يعني: ترديدُ البصر في السّماء مرّةً بعد مرّة، والمعنى: إنّنا نرى تردّد وجهك وتصرُّفَ نظرك في جهة السّماء[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/216.
(2) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قلب).
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/202.

2) ﴿وَجۡهِكَ﴾: أَصْلُ مادّة (الوجه) يَدُلُّ عَلَى مُقَابَلَةٍ لِشَيءٍ، وَالوَجهُ مُستَقبِلُ لِكُلِّ شَيءٍ[1]، وفي سياق الآية: المرادُ الوجهُ لدى الإنسانِ، وكذا في الآياتِ اللّاحقة [البقرة: 149- 150].

3) ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾: فوَلِّ: التّوليةُ هنا بمعنى التّوجّهِ إلى الكعبة، وليس معناها الانصرافَ، كما سبق في قوله تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ﴾، ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾ أي: أقبل بوجهكَ نحو المسجدِ الحرام[2].

4) ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾: أَصْلُ الجذر (رضي) وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ السُّخطِ[3]، ورِضَا العبدِ عن اللّه: أن لا يكرهَ ما يجري به قضاؤه، ورِضَا اللّهِ عن العبد هو أنْ يراهُ مُؤتمرًا بأمره، ومنتهيًا عن نهيه[4]، ومعنى ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ في سياق الآية: تُحبُّها وتهواها؛ لأنّ النّبيَّ ﷺ كان راضيًا بالقِبلة الأولى، مُطيعًا للّه تعالى في حال صلاتِه إليها، ولكنّه أحبّ أنْ تكون قبلتُه الكعبةَ[5].

5) ﴿شَطۡرَ﴾: شَطْرُ الشّيء: نصفُهُ ووسطُه[6]، وكلُّ ما نُصِّفَ فقد شُطِّر، وشَطرُ الشّيء: جهتُهُ وناحيتُه ونَحوه وقصدُه[7]، وهو المعنى المرادُ في هذه الآية والمواطن الّتي بعدها: [البقرة: 144، 149، 150]، ﴿شَطۡرَهُۥۗ﴾، أي: نحوُه، قَصْدَهُ، جهتَه[8].

6) ﴿ٱلۡحَرَامِۚ﴾: أَصْلُ مادّة (حرم) المَنعُ وَالتَّشدِيدُ، فَالحَرَامُ: ضِدُّ الحَلَالِ[9]، المسجدُ الحَرامُ، أي: المُحَرَّم من المَنع، وسُمِّيت تلك البقعةُ حرامًا لما مُنع فيها من أشياءَ لم تُمْنَعْ في غيرها[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجه).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 3/389.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).
(4) الرّاغب، المفردات: (رضي).
(5) الواحدي، البسيط: 3/389.
(6) الرّاغب، المفردات: (شطر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شطر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات: (شطر)، والواحدي، البسيط: 3/389.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرم).
(10) الواحدي، البسيط: 3/390.

7) ﴿أُوتُواْ﴾: من الجذر (أتي)، الإيتاءُ: الإعْطاءُ، فأَتَيْنا: جِئنا، وآتَيْنا: أَعْطَينا[1]، قال الرّاغبُ: "الإتيانُ مَجيءٌ بسهولة"[2]، ومعنى اللّفظ في سياق الآية: أُعْطُوا.

8) ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: الغفلةُ: فَقْدُ الشُّعور بما حقُّهُ أن يُشعَرَ به، والذّهولُ عن الشّيء[3]، وعرّف الرّاغبُ الغفلةَ بقوله: "سهوٌ يعتري مِن قلّة التّحفّظ والتّيقُّظ"[4]، يقال: غفلَ الرّجلُ: صار غافلًا، وغفل عنه، واللّه – سبحانه وتعالى – لا تعتريه غفلةٌ ولا يأخذُهُ سهوٌ، ومعنى نفي الغفلة عن أعمال العباد أنّ اللّه جلّ شأنه مُطّلعٌ عليها، ومُحْصيها، وعالمٌ بجليلها ودقيقها، ويتفرّعُ عن ذلك أنّه – سبحانه – مُجازٍ عبادَه على أعمالِهم كلّها.

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

تحويلُ القبلةِ إلى الكعبة المُشَرَّفة من الرّأفة برسولِ الله ﷺ الّذي كان مُتَشَوِّفًا إلى استقبالِها

قد نرى تَرْديدَ نظرك وتقليبَ وجهك –أيها الرّسولُ ﷺ– إلى جهة السّماء، مرّةً بعد مرّة؛ ترقُّبًا لنزول الوحي إليك في شأن القبلة، فَلَنَصْرِفنَّك عن "بيت المقدس" إلى قبلة تُحِبُّها وترضاها، وهي جهة المسجدِ الحرام بـ "مكّة"، فولِّ وجهك إليها، وفي أيّ مكانٍ كنتُم – أيّها المسلمون – وأردتم الصّلاة فتوجّهوا نحو المَسجدِ الحرام، وإنّ اليهودَ والنّصارى لَيعلمُون أنّ تحويلَكم إلى الكعبة هو الحقُّ الثّابتُ في كتبهم، وما اللّهُ بغافلٍ عمّا يعملُ هؤلاء المعترضون المُشكِّكون، وسيُجازيهم على ذلك.

الآيةُ دليلٌ على حُجّيّة السّنّةِ

وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّ تركَ التّصريح من كمال الأدب[5].

إيضاحُهُ: لو حوَّلَ النبيّ ﷺ القبلةَ من غير أن ينزل قرآنٌ لاتَّبَعَتْهُ الأمّةُ مِن خلفه عملًا بسُنَّتِه العمليّة، ولكنَّ أدَبَهُ في هذا الشّأن العظيم منَعَهُ عن السّؤالِ والطّلب، واكتفى بالتّوجُّه ناظرًا في

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أتي).
(2) الرّاغب، المفردات: (أتي).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (غفل).
(4) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/177، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 22.

السّماء مُنتظرًا وراجيًا من الخالق أن يهديَهُ إلى الصّواب والهُدى في المسألة، والشّاهدُ أنّه لو فعله لكان لِزامًا على أمّتِه، ولكن منعَهُ الأدبُ بدليل تقليبِ وجهه في السّماءِ دون الطّلب والسّؤالِ المباشر.

سبَبُ النّزول:

أخرج البُخاريُّ وأحمدُ والتّرمذيُّ والنَّسَائِيُّ عن البَراء بنِ عازبٍ رضي الله عنه قال: لـمّا قَدِمَ رسولُ اللّه ﷺ المدينةَ، صلّى نحوَ بيتِ المَقدِس ستّةَ عشرَ، أو سبعةَ عشرَ شهرًا، وكان يُحبُّ أن يُوجَّهَ إلى الكعبة، فأنزل اللّه تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾ فَوُجِّهَ نحو الكعبة، وصلّى معه رجلٌ العصرَ، ثمّ خرج فمرَّ على قومٍ من الأنصار، فقال: هو يشهدُ أنّه صلّى مع النّبيّ ﷺ، وأنّه قد وُجِّه إلى الكعبةِ، فانحرفوا وهم ركوعٌ في صلاةِ العَصرِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويّ والبلاغيّ:

غرضُ الاستئنافِ في قولِهِ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ﴾:

تهيئةُ السّامعِ لتلقّي تشريعِ استقبال القبلة

الآيةُ مستأنفةٌ مفصولة عمّا قبلها، وهي تتضمّن ابتداءَ تشريعِ استقبال القبلة، ونسْخَ التّوجّهِ إلى بيت المقدس، ومجيءُ الحكم مستأنفًا استئنافًا ابتدائيًا بلا أداة؛ تهيئةً للسّامع لتلقي الخبر، فيكون حال المتلقّي أنسبَ لسماع الحكم الجديد، لاسيّما وأنّه حكمٌ كبيرٌ.

الدّلالةُ على التّكثير في ﴿قَدْ نَرَىٰ﴾:

التّكثيرُ بالنّظر لفعلِ النّبيِّ لا لرؤيةِ الله، وهو خطابُ تودّدٍ

أفادَ حرفُ ﴿قَدْ﴾ "كثرة الرؤية"[2]، فهي "للتّكثير بقرينة ذكرِ التّقلُّبِ، والتّكثيرُ بالنسبة الى النّبيّ مُتعلّقٌ به ﷺ، وإلّا فهو محالٌ على اللّه تعالى"[3]، فهو "بالنّظر لفعلِ النّبيِّ لا لرؤيةِ اللّه، وهو خطابُ تودّدٍ"[4].

(1) خالد المزيني، المحرّر في أسباب نزول القرآن: 1/224.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/201.
(3) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/206.
(4) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/61.

وتفسيرُهم ﴿قَدْ﴾ بـ (ربّما) "يحتملُ أن يكونَ إشارةً إلى أنّ ﴿قَدْ﴾ في بابه للتّقليل، وإلى أنّه مستعارٌ للتّكثير بجامع التّضاد؛ لأنّ (رُبّ) استعمالُه شائعٌ في التّكثير وإن كان وضعه للتّقليل؛ ولعدم العلم بأحد الاحتمالين فسّروه بـ(رُبّ) لذلك؛ لأنّ من رفع بصره إلى السّماء مرّةً واحدة يصدقُ عليه أنّه قلبَ بصرَه إلى السّماء، وإلّا فيصدق أنّه لم يقلبه، وهو خلافُ الواقع على أنّه لا يلزمُ من حمله على التّقليل كونُ رفع بصره مرّةً واحدة، لجواز أن يكونَ مراراً غير واصل إلى حدِّ الكثرة، واستعمالُ ﴿قَدْ﴾ للتّكثير ممّا ذكره سيبويهِ وصاحبُ المغني والزّمخشريُّ.

ولا يخفى أنّ التقلّبَ لا يقتضي الكثرةَ - كما عرفتَ من أنّه يصدقُ في مرّة واحدة - ألا ترى أنّهم صرّحُوا في مسألة الاستسقاءِ بأنّ الإمامَ قلب رداءَه، مع أنّه مرّة واحدة، وفي بيان شرط الرؤية تقلّب الحدقةِ وهو في مرّة واحدة، مع أنّه من باب التّفعيل، والتقلّب من باب التّفعّلِ، وهذا وهمٌ مَحْضٌ وإن ذهبَ إليه كثيرون، فالصّوابُ أنّ مرادَ الشّيخين بإيراد (ربّما) ما ذكرنا من الإشارة إلى الاحتمالين التّقليل والتّكثير"[1].

المضارعُ بمعنى الماضي في ﴿قَدْ نَرَىٰ﴾:

فعلُ "﴿نَرَىٰ﴾ هُنَا مُضَارِعٌ بِمَعنَى المَاضِي، وَقَد ذَكَرَ بَعضُ النَّحْوِيِّينَ أَنَّ مِمَّا يَصْرِفُ المُضَارِعَ إِلَى المَاضِي (قَدْ) فِي بَعْضِ المَوَاضِعِ، وَمِنْهُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور: 64]، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ [الحجر: 97]، ﴿۞قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: 18]"[2].

دلالةُ الكنايةِ في قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾:

تحقيقُ الكلام كنايةٌ عن حصولِ الوَعدِ ودَفعِ الاستبطاءِ

جاء حرفُ التّحقيق ﴿قَدْ﴾، كنايةً عن دفع الاستبطاء، وتطمينًا للنّبيّ ﷺ؛ لأنّه كان حريصًا على تحقّقه، فكان تحقيقُ الكلام كنايةً عن حصولِ الوَعدِ ودَفعِ الاستبطاءِ، ومن جهة أخرى، فإنّ هذه الكنايةُ تُترجمُ عن شدّة تشوّق النّبي ﷺ لتغيير القبلة، مع الإشهار

(1) القونوي، حاشية القونوي على البيضاوي: 4/324.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/21، والسمين، الدر المصون: 2/159.

بأدبِهِ وحسن سلوكه مع الخالق تعالى؛ حيثُ إنّه لم يسأل ولم يطلُب، بل انتظر الوحيَ أدبًا مع الله تعالى[1].

سرُّ إطلاقِ الوجهِ وإرادةُ الأعينِ في قوله: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾:

المقصودُ بقوله تعالى: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ "تَقَلُّب عينيك، فذكرهما بلفظ الوجهِ، كما ذكر الأعينَ بلفظ الوجوه في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: 22-23]، وذلك أنّ ما تقعُ به المواجهةُ يسمّى وجهًا، كاللِّحية؛ قد يطلقُ عليها اسمُ الوجه، ويجوزُ أن يريدَ نفسَ الوجه؛ لأنّه كما يقلّب عينيه في السّماء يقلّب وجهه"[2]، "وتقلّبُ الوجهِ أبلغُ من تقلّب العين"[3]، "ومعنى: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: أي تطلّعك الوحيَ المنزلَ"[4]، "وذكر الوجهَ لأنّه أعمُّ وأشرف، وهو المستعملُ في طلب الرغائب"[5].

الـوجـهُ أعـمُّ وأشـرفُ، وهو المُستعمَلُ في طلبِ الحاجاتِ

فائدةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيّةِ في قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

لم تكنِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ ظرفًا للتّقليب، لأنَّ التَّقليبَ كان نحو السّماء وقِبَلها[6]، ومع ذلك فقد استعملَ حرفَ الظَّرفيَّةِ دون غيرِه من الأحرفِ؛ ليبيّنَ شدّة التّقليب، وصرف النّظر إلى السّماء، حتّى صار مستقرًّا في السّماء؛ ولهذا السّبب اختار ﴿فِي﴾ دون (إلى) فلم يقل: (إلى السّماء)؛ إذ لو قال ذلك لدلّ على أنّه ينظر باتّجاه السّماء وحسب، من غير تحمّل دلالةٍ أخرى؛ كالاستغراقِ في النّظر، وشدّة التّطلّع.

بـيـانُ شـدّة التّقليب، والنّظر إلى الـسّـمـاء، حـتّـى صـار مستقرًّا فيها

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

"ومعنى التقلّب نحو السّماءِ أنّ السّماءَ جهةٌ قد تعوّدَ العَالَمُ منها الرّحمةَ؛ كالمطر والأنوار والوحي، فهم يجعلون رغبتهم حيثُ

الـسَّـمَـاءُ جِـهَـةُ الرَّحـمَـةِ والـوحـيِ، وَهي قِبلَةُ الدُّعَاءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/26-27.
(2) الواحدي، البسيط: 3/387.
(3) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/334.
(4) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/335.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/221.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 3/172.

توالت النّعم"[1]، فوجهُ تخصيص السَّماءِ بالذِّكرِ: أنَّها "جِهَةٌ تَعُودُ مِنهَا الرَّحْمَةُ، كَالمَطَرِ وَالْأَنْوَارِ وَالوَحيِ، فَهُم يَجعَلُونَ رَغبَتَهُمْ حَيثُ تَوَالَتِ النِّعَمُ، وَلأَنَّ السَّمَاءَ قِبلَةُ الدُّعَاءِ، وَلِأَنَّهُ ﷺ كَانَ يَنتَظِرُ جِبرِيلَ، وَكَانَ يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ"[2].

الحالُ المحذوفة في قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ في الجُملَةِ السَّابِقَةِ حَالًا مَحذُوفَةً، التَّقدِيرُ: قَد نَرَى تَقَلُّبَ وَجهِكَ فِي السَّمَاءِ طَالِبًا قِبلَةً غَيرَ الَّتِي أنتَ مُستَقبِلُهَا[3].

دلالةُ (الفاءِ) و(اللّام) في ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾:

"﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾: الفاءُ للدلالة على سَببيّة ما قبلَها لما بعدَها"[4]، "وَجَاءَ هَذَا الوَعدُ عَلَى إِضمَارِ قَسَمٍ مُبَالِغَةً فِي وُقُوعِهِ، لأَنَّ القَسَمَ يُؤَكِّدُ مَضمُونَ الجُملَةِ المُقسَمِ عَلَيْهَا"[5]، فالفاء: "داخلةٌ على قسم محذوف يدلّ عليه (اللّام)؛ أي فواللهِ لنولِّينَّك، أي: لنُعطِينَّكها ولنُمَكِّنَنَّك من استقبالها"[6].

دلالةُ تنكيرِ لفظِ: ﴿قِبْلَةً﴾:

تشويقُ السّامعِ وتعظيمُ القِبلةِ

جاءَ لفظُ ﴿قِبْلَةً﴾ نَكِرَةً: "لأَنَّهُ لَمْ يَجرِ قَبْلَهَا مَا يَقتَضِي أَنْ تَكُونَ مَعهُودَةً، فَتُعَرَّف بِالأَلِفِ واللَّام، ولَيْسَ في اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَطلُبُ بِاللَّفْظِ قِبْلَةً مُعَيَّنَةً"[7]، ونكّر القبلةَ هنا للتّشويق والتّعظيم، فعندما يتلقّى السّامعُ خبرَ تحويل القبلة دون تعيين اسمها، فإنّه سيتشوّق لسماع اسمها وإن كان يعرفها مسبقًا، فلبيانِ غرضِ التّنكير هنا وهو التّعظيمُ؛ حجبَ التّعريفَ بالألف واللّام.

الجناس في قوله ﴿تَقَلُّبَ﴾ ﴿قِبْلَةً﴾:

التماثلُ اللّفظيُّ في حروف ﴿تَقَلُّبَ﴾ ﴿قِبْلَةً﴾ دون التّرتيب،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/221.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.

جناسٌ ناقصٌ[1]، فهما من بِنيتين مُختلفتين (قلب، قبل)، تماثلتا في الحروف دون ترتيبها.

التّعبيرُ بالفعل المضارعِ دون الاسم في ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾:

تشريفُ النَّبيِّ ﷺ وبيانُ استمرارِ الرِّضا

عبّر عن الرِّضَا بجملة فعليّة ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ ولم يصفْها بالمفرد، للنّص على أن الرّاضي هو النّبي ﷺ؛ لكونه مخاطبًا بالفعل، والمفردُ (مرضية) لا يظهرُ فيه الخطاب، ففيه تشريفٌ وعنايةٌ بشأنِ النَّبيِّ ﷺ ما لا مزيدَ عليه.

وعبّرَ بالفعل المضارع إرادةً لزمنه الحاضر على الحقيقةِ، ويحملُ ذلك أيضًا الرّضا بها على الدّوام والاستمرار في المستقبل؛ لأنّ المضارع يدلُّ على الزّمنين: الحاضر والمستقبل، والسّياق هو الّذي يُحدّد إذا كان الزّمانان مقصودَيْن[2].

إيثار التّعبيرُ بفعل الرّضا، في قوله: ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾:

التّعبير بالرّضا يُشعر بالمحبّة عن معرفةٍ وعقلٍ

"قوله تعالى: ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ أي: تحبّها وتهواها؛ لأن النبي ﷺ كان راضيًا بالقبلة الأولى، مطيعًا لله في حال صلاته إليها، ولكنه أحبّ أن تكون قبلته الكعبة"[3]، وهذا الحبُّ جاءَ "لمقاصدَ دينيةٍ وافقتْ مشيئَته تعالى وحِكْمتَه"[4]، واختار التّعبيرَ بالرّضا، دون المحبّة أو الهوى أو الرّغبة؛ لأنّ الرّضا يُشعرُ بالمحبّة عن معرفة وعقل، فالنّبيّ ﷺ أبعدُ من أن يتعلّق بالأماكن، أو يفضِّل مكانًا منها على آخر من غير غاية ساميةٍ، وأهدافٍ نبيلة[5]، والرّضا يكون بعد الحدث، وهو نقيضُ السّخط، فبذلك سينفي السّخط عنه ﷺ تزكيَةً له، وحبُّه لها "بحسب الطّبع وإلّا فهو يحبُّ أوامر الله مطلقًا، ولكن إذا كانت

(1) الجناس الناقص، أو الجناس غير التّام: هو ما اختلف فيه اللّفظان في نوع الحروف، أو حركتها، أو ترتيبها، أو عددها، مع اختلافٍ في المعنى بينهما، يُنظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 326.
(2) القونوي، حاشية القونوي على البيضاوي: 4/326.
(3) الواحدي، البسيط: 3/389.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/28.

موافقة للطّبع كانت أحبّ"[1]، فهو لا يحبُّ الكعبةَ "عن هوًى، ولكنّها قبلةُ العرب، فيتوفّرُ بها دواعيهم إلى الإيمان"[2].

نكتةُ تقديمِ الوعدِ على الأمر:

الوعدُ أحبُّ إلى الإنسان من الأمرِ فَرُوعِيَ ذلك

قُدِّم الوعدُ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾، على الأمرِ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لبيانِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ في هذا الأمرِ كسائرِ البشرِ، يحبُّ سماعَ الوعدِ قبل الأمرِ بمضمونِه، فجاءَ "الوَعدُ قَبلَ الأَمرِ لِفَرَحِ النَّفسِ بِالإِجَابَةِ، ثُمَّ بِإِنجَازِ الوَعدِ، فَيَتَوَالَى السُّرُورُ مَرَّتَينِ، وَلأَنَّ بُلُوغَ المَطْلُوبِ بَعدَ الوَعدِ بِهِ آنَسُ فِي التَّوَصُّلِ مِن مُفَاجَأَةِ وُقُوعِ المَطلُوبِ"[3]، وهذا أحدُ أدلَّةِ أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ تعالى، لا علاقةَ للنَّبيِّ ﷺ به إلَّا بالتَّبليغِ والبيانِ.

دلالةُ (الفاء) في ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾:

"﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾: الفاءُ لتفريعِ الأمرِ بالتّولية على الوعدِ الكريمِ"[4].

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾:

الوَجهُ أَشرَفُ الأَعضَاءِ وهو معيارُ التَّوجُّه

التّوجّهُ للقبلة لا يقعُ بالوجه فقط، بل بالذّات والبدن وتوجُّهه بالكلّيّة، فقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ من باب إطلاق الجزء وإرادة الكلّ، وهذا مجازٌ مرسل[5]؛ فأطلق الوجهَ وأراد به "جُملَةَ البَدَنِ؛ لأَنَّ الوَاجِبَ استِقبَالُهَا بِجُملَةِ البَدَنِ، وَكَنَّى بِالوَجهِ عَنِ الجُملَةِ، لأَنَّهُ

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/62.
(2) النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 1/127.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23، والقونوي، حاشية القونوي على البيضاوي: 4/326.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(5) المجاز المرسل: المجاز الّذي تكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقيّ والمعنى المجازي الّذي استعمل اللفظ للدّلالة به عليه أمراً غير المشابهة، أو قائماً على التّوسع في اللّغة دون ضابطٍ معيّن، وسُمِّيَ "مجازاً مُرْسلاً" لكونه مرسلاً عن التّقييد بعلاقة المشابهة، يُنظر: عبد الرّحمن حَبَنَّكَة، البلاغة العربية: 2/271.

أَشْرَفُ الأَعضَاءِ، وَبِهِ يَتَمَيَّزُ بَعضُ النَّاسِ عَنْ بَعضٍ"[1]، "وتخصيصُ التّولية بالوجه لما أنّه مدارُ التّوجّه ومعيارُه"[2].

فائِدةُ اختلاف توجيه الأمر: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾، ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾:

تعظيم النَّبيِّ ﷺ وتشريفُ المؤمنين بخطابِهم بعد خطابِه

جاء الأمرُ بتولية الوجوه مرّةً للنَّبيِّ: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾ على وجه الخصوص "تعظيماً له وإيجاباً لرغبته، ثم عُمّم تصريحًا بعموم الحكم وتأكيدًا لأمر القبلة وتحضيضًا للأمّة على المتابعة"[3] فقال: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾، ولا يخفى أنّ النّبيّ ﷺ يدخل في الخطاب الموجّه إلى المؤمنين في قوله تعالى: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾، ولكنّه أفرد النّبيّ ﷺ بتوجيه الأمر إليه إرضاءً لرغبته كونه كان يتطلّع له[4]، ثمّ وجّه الأمرَ إلى المؤمنين تشريفًا لهم بالخطاب بعد خطاب رسوله ﷺ؛ لتشتدّ عزيمتُهم وتطمئنّ قلوبُهم، ويتلقّوا تلك الفتنةَ الّتي أثارها المنافقون وأهل الكتاب واليهود بعزيمةٍ صادقةٍ وثباتٍ على اتّباع الرّسول[5].

ومن فوائد خطابِ الأمَّة؛ "فلأنّه، كان يجوزُ أن يُعتقد أنّ هذا أمر قد خُصَّ ﷺ به كما خُصَّ بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ [المزمّل: 2]؛ ولأنّه لما كان تحويل القبلة أمراً له خطرٌ خصَّهم بخطابٍ مفردٍ ليكون ذلك أبلغَ، فمعلوم من السلطان إذا خاطب والياً من قبله بأمر ذي بال يعمّه، ورغبته أن يخصّه بخطاب مفردٍ ليكون ذلك أوقعَ عندهم وأدعى لهم إلى قبولهم، وليكون لهم في ذلك تشريفٌ، ولأنّ في الخطاب العامّ تعليقُ حكمٍ آخرَ به، وهو أنّه لا فرق بين القريب والبعيد في وجوب التّوجّه إلى الكعبة"[6].

فائدة ذكرِ ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ دون الكعبةِ:

قولُه تعالى: ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ "مجازٌ مرسلٌ من إطلاق اسم الكلِّ على الجزء إن

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/112.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/28.
(5) المراغي، تفسير المراغي: 2/10.
(6) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/335-336.

مراعاةُ التَّوجُّه إلى المسجدِ الحرامِ أيسرُ من الكعبةِ

قلنا: المرادُ منه الكعبةُ كما علّله الأكثرون"[1]، وفي ذكر المسجدِ الحرامِ دون الكعبة وجوبُ مراعاةِ الجهةِ دون العَين؛ لأنّ في إصابةَ عين الكعبة من البعيدِ حرجاً عظيماً على النّاس[2].

توجيه وصف المسجدِ بالحرام:

"قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَرَامِۚ﴾ بمعنى المحرّم، وأصله: من المنع، سمِّيت تلك البقعة حرامًا لما منع فيها من أشياءَ لم تُمنع في غيرها"[3].

فائدةُ الاستئنافِ في ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾:

تعميمُ حكم استقبال القبلة على جميع المؤمنين

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَحَيۡثُ مَا﴾ استئنافية، فقد توجَّه الخطابُ "للمؤمنين مع التعرُّض لاختلاف أماكنِهم تأكيداً للحُكم، وتصريحاً بعُمومه لكافة العباد من كل حاضر بادٍ، وحثاً للأمَّة على المتابعة"[4]؛ فالاستئناف جاء لبيانِ "أَنَّ حُكمَهُ وَحُكْمَ أُمَّتِهِ فِي ذَلِكَ وَاحِدٌ، مَعَ مَزِيدِ عُمُومٍ فِي الأَمَاكِنِ، لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ هَذِهِ القِبلَةَ مُختَصَّةٌ بِأَهْلِ المَدِينَةِ، فَبَيَّنَ أنهم في أيما حَصَلُوا مِنْ بِقَاعِ الأَرْضِ، وَجَبَ أَنْ يَسْتَقبِلُوا شَطْرَ المَسجِدِ"[5].

سببُ إفرادِ النّبيِّ وأمرِه قبل أمرِ الأمّةِ:

"وَلَمَّا كَانَ ﷺ هُوَ المتشوّف لِأَمْرِ التَّحوِيلِ، بَدَأَ بِأَمْرِهِ أَوَّلًا ثُمَّ أَتْبَعَ أَمْرَ أُمَّتِهِ ثَانِيًا؛ لأَنَّهُمْ تَبَعٌ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا اخْتُصَّ بِهِ ﷺ"[6].

الفاء الفصيحةُ في: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾:

أثرُ الرِّوايةِ في توجيهِ البلاغةِ، وتقديرِ المحذوفاتِ

أفصحت الفاءُ عن مقدَّرٍ محذوفٍ في قولِه: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾، وتقديره: وحيثما كنتم وأردتم الصّلاة، فولّوا وجوهكم

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/24.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/203، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/24، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 3/390.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/175.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/25.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/25.

شطره"[1]، "قَالُوا: وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرْ (فِي الصَّلَاةِ)؛ لِأَنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ، فَأَغْنَى التَّلَبُّسُ بِالصَّلَاةِ عَنْ ذِكْرِهَا، وَمَنْ قَالَ نَزَلَتْ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ، فَأَغْنَى عَنْ ذِكْرِ الصَّلَاةِ أَنَّ المَطْلُوبَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا ذَلِكَ، أَعْنِي: التَّوَجُّهَ فِي الصَّلَاةِ، وَأَقُولُ: فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَقْصُودَ هُوَ فِي الصَّلَاةِ؛ لِأَنَّ القِبلَةَ هِيَ الَّتِي يُتَوَجَّهُ إِلَيهَا فِي الصَّلَاةِ"[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالاسم الموصول في ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دون (أهل الكتاب):

الموصول دالٌّ على قوم معيَّنين؛ و(أهل الكتاب) مُشعرٌ بالعموم

جاءَ التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾ دون أهل الكتابِ؛ "لعلمهم بأنّ عادتَه سبحانه وتعالى جاريةٌ على تخصيص كلِّ شريعةٍ بقِبلة، ومعاينتهم لما هو مسطورٌ في كتبهم من أنه عليه الصّلاةُ والسّلام يصلِّي إلى القِبلتين، كما يُشعر بذلك التعبيرُ عنهم بالاسم الموصول بإيتاء الكتاب"[3].

فالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يدلُّ على قوم بعينهم؛ فالأحرى أن يكون المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الأحبار منهم، أمّا (أهل الكتاب) فيشعرُ بعموم اليهودِ والنّصارى، ويدلُّ عليه قوله اللّاحق ﴿لَيَعۡلَمُونَ﴾، والعلمُ صفةٌ خاصّةٌ، وليست ممّا يكون عامًا لأمّة كاملة، والمقصود بهم الأحبار، قال الفخر الرّازيّ في تفسير قوله جلّ شأنه: ﴿نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ [البقرة: 101]، "﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فَفِيهِ قَوْلَانِ، أَحَدُهُمَا: أَنَّ المُرَادَ مِمَّنْ أُوتِيَ عِلْمَ الكِتَابِ مَنْ يَدرُسُهُ وَيَحْفَظُهُ، الثَّاني: المُرَادُ مَنْ يَدَّعِي التَّمَسُّكَ بِالكِتَابِ سَوَاءٌ عَلِمَهُ أَوْ لَمْ يَعْلَمْهُ، وَهَذَا كَوَصْفِ المُسلِمِينَ بِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ القُرْآنِ لَا يُرَادُ بِذَلِكَ مَنْ يَخْتَصُّ بِمَعْرِفَةِ عُلُومِهِ، بَلِ المُرَادُ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَيَتَمَسَّكُ بِمُوجَبِهِ"[4]، وقال في موضع آخر: "المُرَادُ أَحْبَارُ اليَهُودِ وَعُلَمَاءُ النَّصَارَى؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ لِعُمُومِ اللَّفْظِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا عَدَدًا قَلِيلًا؛ لِأَنَّ الكَثِيرَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمُ التَّوَاطُؤُ عَلَى الكِتمَانِ"[5].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 3/390.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/175.
(4) الرازي، التفسير الكبير: 3/616.
(5) الرازي، التفسير الكبير: 4/106.

الاختلافُ في مرجعِ الضّميرِ في: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾:

مـآلُ الاختـلافِ واحدٌ، فالمسجدُ الحرامُ والتَّوليةُ إليه شيءٌ واحد

اختُلف في مرجع الضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ فقيل: "يجوز أن ترجعَ إلى المسجد الحرام، أي: إنّهم عالمون أنّ المسجد الحرام قِبْلَة إبراهيم وأنّه حقٌّ، ويجوز أن تعود الكنايةُ إلى التّولية؛ لأنّ قوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ دلَّ على المصدر، والتّولية، وإن كانت في لفظ المؤنث، فهو مصدر، كما أنّ قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ [آل عمران: 180] دلَّ على البخل، فكنّى عنه بقوله: ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [آل عمران: 180][1]، "والقولان في التّحقيق واحد"[2]؛ لأنَّ التَّولية هي للمسجدِ الحرام، والمقصود بالمسجد الحرامِ ما كان توليةً إليه.

القصرُ بالتّعريف في ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾:

يدلُّ قولُه: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ على أنّه لا حقَّ غيره في موضوع القبلة، وما دونه مجرّدُ أهواءٍ، فقوله: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: يعلمون أن استقبالَ الكعبة هو الحقّ دون غيره، "والمعنى أنّ اليهودَ والنّصارى يعلمون أنّ الكعبةَ هي قبلةُ إبراهيم إمام الأمم، وأنّ استقبالها هو الحقُّ الواجبُ على الجميع اتّباعًا لمحمّدٍ ﷺ الّذي يجدونه في كتبهم"[3].

دلالةُ الجارّ والمجرور ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾:

نفيُ الاجتهادِ، وبيان أنّ الأمرَ من الله تعالى

قولُه تعالى: "﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾: جَارٌّ وَمَجرُورٌ في مَوضِعِ الحَالِ؛ أَيْ: ثَابِتًا مِنْ رَبِّهِمْ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّحَوُّلَ مِنْ بَيْتِ المَقدِسِ إِلَى الكَعْبَةِ لَمْ يَكُنْ بِاجتِهَادٍ، إِنَّمَا هُوَ بِأَمرٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى"[4]، فهو أمرٌ خالصٌ من الله تعالى.

"وَفِي إِضَافَةِ الرَّبِّ إِلَيْهِمْ تَنبِيهٌ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ اتِّبَاعُ الحَقِّ الَّذِي

(1) الواحدي، البسيط: 3/391-392.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/336.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/222.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/25.

هُوَ مُستَقِرٌّ مِمَّنْ هُوَ مُعتَنٍ بِإِصلَاحِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾"[1]، وليلحظ فيه معنى الرّعاية الّتي حظوا بها من الله تعالى، وكذلك لأنّ الرّبّ يُصلِحُ أحوالَ خلقه، وأنّ هذا التّحوّل من باب الإصلاح والرّعاية.

فائدةُ نفي الغفلةِ عن الفعل لا عن الذّواتِ في ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾:

"قال ابنُ عباس: يريدُ أنّكم يا معشرَ المؤمنين تطلبون مرضاتي، وما أنا بغافل عن ثوابكم وجزائكم، وإنّ اليهودَ يطلبون سخطي، وما أنا بغافل عن خِزْيهم في الدّنيا والآخرة"[2]، و"في خِطَابِهِمْ بِأَنَّ اللَّه لَا يَغفَلُ عَنْ أَعمَالِهِمْ، تَحْرِيكًا لَهُم بِأَنْ يَعمَلُوا بِمَا عَلِمُوا مِنَ الحَقِّ، لأَنَّ المُوَاجَهَةَ بِالشَّيْءِ تَقْتَضِي شِدَّةَ الإِنكَارِ وَعِظَمَ الشَّيْءِ الَّذِي يُنْكَرُ ... فَهُوَ إِعْلَامٌ بِأَنَّ اللَّه تَعَالَى لَا يُهْمِلُ أَعْمَالَ العِبَادِ، وَلَا يَغْفَلُ عَنْهَا، وَهُوَ مُتَضَمِّنٌ الوَعِيدَ"[3].

الله تعالى لا يُهمِلُ أعمالَ العِبادِ، ولا يَغفلُ عنها، وكفى بهذا وعيدا

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِرَادَة والرِّضَا:

الإِرَادَةُ تكون قبل الفعل، وأمّا الرِّضَا فيكون بعد الفعل، فَلَيْسَ الرِّضَا من الإِرَادَة فِي شَيْء، وَالرِّضَا أَيْضا نقيضُ السّخط، وليس كذلك الإرادة، وفي الآية استعمل ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ ليدلَّ على أنّ ذلك سيكون بعد أن تتحوّل القبلة، لينفي السّخط عنه عليه السلام.

الإرَادَةُ تكون قبلَ الفعل، والرِّضَا يكون بعدَ الفعل

الرّضا والمحبّة:

الرّضا: الأَصْلُ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ السُّخْطِ، رضيتُ الشّيء ورَضِيتُ بِهِ رِضًا، اخترته، ورِضَا العبدِ عن الله: أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورِضَا اللّهِ عن العبد هو أنْ يراه مؤتمرًا لأمره، ومنتهيًا عن نهيه[4].

المحبّة ضدُّها البُغضُ، والرّضا ضدّه السّخط، والرّضا مشعرٌ بالقبول، والحبّ مشْعر بالميل

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/25.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 3/392.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/25- 26.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات؛ الفيومي، المصباح المنير: (رضي).

والمحبَّة: الأصل: اللُّزُومُ وَالثَّبَاتُ، فَالحُبُّ وَالمَحَبَّةُ: أَحَبَّهُ إِذَا لَزِمَهُ، والحبّ ودادٌ شديدٌ في مقابل البغض، والمحبّة إرادة ما تراه أو تظنّه خيرًا؛ فإنّ المحبّة أبلغُ من الإرادة[1]، ويظهر الفرقُ بضدّيهما، فالمحبّة ضدُّها البغضُ، والرّضا: ضدّه السّخطُ، وهو يرجع إلى الإرادة[2].

والرّضا مشعرٌ بالقبول، والحبّ مشْعر بالميل، فاختارت الآيةُ لفظَ الرّضا؛ لبيان أنّ الرّسولَ ﷺ لم يكن يميل إلى الكعبة من باب الميل النّفسيّ العاطفيّ، ولكنّه من باب الإرادة والاختيار لما فيها من مصالح، وتعبّر أيضًا عن رضاه عنْ ربّه وقَبول أوامره، فلو قال: (تحبّها)؛ لكان التّحويل معبِّرًا استجابةً لرغبةٍ في قلب النّبيّ ﷺ فقط، بلا معنى القبول والرّضا عن الله وإطاعته، وعليه سيكون ترتيبُ الأفعال من حيثُ رتبتُها في القوّة والوجود: الإرادة ثمّ الرّضا ثمّ الحبّ.

الجعل والعَمَل:

العَمَلُ هُوَ إيجاد الأثر في الشَّيْء على مَا ذكرنَا، والجعل تَغْيير بإيجاد الأَثر فِيهِ بِغَيْر ذَلِك، أَلا ترى أَنَّك تَقول: جعل الطّين خزفًا وَجعل السَّاكِن متحرّكًا، وَتقول: عمل الطّين خزفًا، وَلَا تَقول عمل السَّاكِن متحرّكًا؛ لأنّ الحَرَكَة لَيست بأثر يُؤثر بِهِ فِي الشَّيْء[3].

العَمَل إيجادُ الأثرِ في الشَّيْء، والجعلُ تَغْييرٌ بإيجاد الأَثر فِيهِ

وفي الآية استعمل (جعل) مع الأمّة، ومع تغيير القبلة؛ لأنه تغيير بإيجاد أثر، وقال في آخر الآية ﴿يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ لأنّه إحداثٌ وإيجادُ أثرٍ بلا دلالةِ تغيير.

تعملون، وتكسبون، وتفعلون، وتصنعون:

الكسبُ: الفِعْل العَائِد على فَاعله بنفع أَو ضرّ، وما وَقع بمراس وعلاج، وَقَالَ آخَرُونَ: الكسْب ما فُعل بجارحة؛ ولذا لَا يُوصف الله بِأَنَّهُ مكتسب، اكْتسب الرّجلُ مَالًا وعقلًا وثَوابًا وعقابًا، وَيكون بِمَعْنى

الكسب الفِعْل العَائِد على فَاعله بنفع أَو ضرّ، وما وَقع بمراسٍ وعلاجٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات: (حبب).
(2) الشيخ بيت الله بيات، معجم الفروق اللّغويّة: ص: 257.
(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 136.

الفعل في قَوْلك: اكْتسب طَاعَة، فالمكتسِب: هُوَ الجَاعِل للشَّيْء مكتسَبًا لَهُ بحادث، فمكتسِب الطَّاعَة هُوَ الجَاعِل لَهَا مكتسَبة بإحداثها[1].

العَمَل: إيجَاد الأَثر في الشَّيْء يُقَال: فلَان يعْمل الطّين خزفًا، وَلَا يُقَال: يفعل ذَلِك، قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: 96]، أَي خَلقكُم وَخلق مَا تؤثّرون فِيهِ بنحتكم إيَّاه، وَلَا يُقَال للفِعل الوَاحِد عمل[2].

العَمَل إيجَاد الأَثر في الشَّيْء يُقَال فلَان يعْمل الطّين خزفًا، وَلَا يُقَال يفعل ذَلِك

الفِعلُ: يقالُ لما كان بإجادةٍ وبدونها، ولما كان بعلمٍ أو غير علمٍ، وقصدٍ أو غير قصدٍ، ولما كان من الإنسانِ والحيوان والجماد[3].

الفعلُ لفظٌ عامٌّ يقالُ لما كان بإجادةٍ وبدونها، ولما كان بعلمٍ أو غير علمٍ

الصّنعُ: هو من الإنسانِ دون سائر الحيوانات، ولا يقالُ إلا لما كان بإجادة؛ ولهذا يقال للحاذقِ: المُجيد وللحاذقةِ المجيدة: صَنَعٌ، فالصُّنْعُ أخصّ المعاني الثّلاثة، والفِعل أعمُّها، والعملُ أوسطها، فكلُّ صنعٍ عملٌ، وليس كلُّ عملٍ صنعًا، وكلُّ عملٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ عملًا[4].

الصُّنعُ يكون من الإنسانِ دون سائر الحيواناتِ، ولا يقالُ إلّا لما كان بإجادة

شَطْر وتِلقَاء:

قال ﷻ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ولم يقل: تلقاءَ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: 22].

شَطْرَ: شَطْرُ الشّيء: نصفه ووسطه[5]، وكلّ ما نُصِّفَ فقد شُطِّر، والشَّطر: الجهةُ، وشَطْر الشّيء ناحيته، وشَطر كلِّ شيء: نحوُه وقصدُه[6]، ومِنْ هَذَا البَاب الشَّطْرُ الَّذي يُقَالُ في قَصْدِ الشَّيْءِ وَجِهَتِه، قَالَ اللَّه تَعَالَى في شَأْنِ القِبْلَة: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أَيْ قَصْدَهُ.

الشَّطرُ شَطْر الشّيء ناحيتُه وجهته

(1) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 137.
(2) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 134- 135.
(3) الشيخ بيت الله بيات، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 322.
(4) الشيخ بيت الله بيات، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 323.
(5) الرّاغب، المفردات: (شطر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شطر).

اللِّقَاءُ مقابلةُ الشّيء ومصادفته معًا

تلقاء: الأصل (لقي)، اللِّقَاءُ: مقابلة الشّيء ومصادفته معًا، جهَة اللِّقاءِ والمُقابَلَة، جَلَسْتُ تِلْقاءَهُ أي حِذَاءَهُ[1]، ومعنى ﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: 22]، أي سَلك في الطّريق الّتي تلقاء مَدْيَنَ فيها[2]، وقال الفخر الرّازيّ: ﴿تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: 22]: خَرَجَ وَمَا قَصَدَ مَدِينَ، وَلَكِنَّهُ سَلَّمَ نَفسَهُ إِلَى اللَّه تَعَالَى وَأَخَذَ يَمشِي مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ، فَأَوْصَلَهُ اللَّه تَعَالَى إِلَى مَدْيَنَ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنُ عَبَّاسٍ، ولَمَّا خَرَجَ قَصَدَ مَدْيَنَ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ بِالطَّرِيقِ بَلِ اعْتَمَدَ عَلَى فَضْلِ اللَّه تَعَالَى[3].

ويظهر أنّ الفرقَ من خلال ما قدّمنا في شيئين: الأوّل: أنّ التوجّه المعبّر عنه بـ ﴿تِلْقَآءَ﴾ يدلُّ على الذهاب إلى المتوجَّه إليه، ولقائه، ففيه معنى البلوغ والوصول واللّقاء، وهو اتّجاه للذّهاب، وليس اتّجاهًا للتّوجّه فقط، فقوله تعالى: ﴿تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: 22] يعني يذهب إليها حتّى يبلغها، وأمّا: ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ﴾ فيعني التوجُّه إليه للمواجهة فقط بلا ذهاب وبلوغ، والثّاني: أنَّ التّوجُّه في ﴿تِلْقَآءَ﴾ [القصص: 22] من غير معرفة الطّريق المؤدّية إلى المَقصَد، فهو يعرف الاتّجاه العامّ له فقط، أمّا الشّطْر فمأخوذ من شَطر الشّيء ومناصفته، ففيه تحديدٌ ووضوح أكثر؛ فلذا استعمل مع المسجد الحرام؛ لأنّهم يعرفونه، فجاء في سياق القبلة الّتي تقتضي الوضوح والدّقّة، أمّا (مَدْيَنَ) [القصص: 22] فلم يكن لموسى فيها معرفةٌ دقيقةٌ؛ فذهابه إليها تلقائيّ بلا خطّة ومعرفة، وكذلك الفعل (ألقى) هو إلقاء بلا هدف.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات: (لقي).
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/138.
(3) الرّازي، التفسير الكبير: 24/588.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 2 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-53-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 2 : سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-53-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»